والإذعان، وأمضي مع ذلك في جهاد نفسي ومدافعتها، حتى إذا استقر كل شيء وغُلِّقت الأبواب، وانقطعت سبيلي إلى الدار، اضطررت إلى أن آوي إلى مضجعي، وسجلت لنفسي يومًا من أيام النصر وأمدًا من آماد الفوز، وأجلت الهزيمة والتسليم إلى غد.

وإني لأرى نفسي ذات يوم وقد تقدم النهار حتى كاد ينقضي وأخذت طلائع الليل الشاحبة تغزو الأرض، وإني لأراني خارجةً كالمنسلة من دار المأمور، ساعيةً كالهاربة التي تحرص على الاستخفاء، أدور حول الدار مجاورةً أسوار الحديقة حتى لأكاد أمسحها مسحًا، ثم منعطفة بعد قليل، ثم منطلقةً كالسهم حتى أقطع ما بين الدارين من طريق. وألجُ حديقة المهندس، ثم أسعى هادئة مضطربة معًا نحو البستاني كأنما أريد أن أسأله عن شيء، حتى إذا بلغته لم أستطع أن أقول له شيئًا، وإنما وقفت أمامه ذاهلة غافلة بلهاء يملكني الخوف ويغمرني الحياء، أريد أن أمضي أمامي حتى أدخل الدار وأبلغ غرفة «هنادي» فأقضي فيها لحظة أو لحظات، ولكني لا أستطيع أن أتقدم، والبستاني يسألني من أنا، ومن أين أقبلتُ، وماذا أريد؟ فإذا ألحَّ علي في السؤال وأحسست أن صمتي يطول وأن الرجل سينتهي إلى الضيق بي وبما أعرض عليه من غفلة وبله وذهول، ولَّيتُ مدبرة، وانصرفت نافرة لا ألوي على شيء، كأنني أخشى أن يتبعني تابع أو يتعقبني متعقب، وما أزال أشتد في العدو حتى أبلغ دارنا فأنسلُّ إليها لم يشعر بخروجي منها ولا بعودتي إليها أحد، ثم أمضي متجاهلةً متغافلة حتى أبلغ غرفتي وآخذ موقفي من النافذة وقد سجلت على نفسي بعض الهزيمة وإن لم أنتهِ بها إلى الغاية.

على أني ألفت الطريق بين هاتين الدارين، وألفت البستاني والاختلاف إليه، والأخذ معه في أطراف من الحديث، وتبادل الإشارات معه من النافذة ومسارقته بعض الكلام.

ثم لم تتصل الأيام بيني وبين هذا البستاني حتى كان الظاهر من أمر هذا المهندس الشاب عندي واضحًا معروفًا، أعرف من عاداته وأطواره ومن ذهابه وإيابه ومن جده وهزله ما يمكن لمثلي أن يعرفه حين يتصل بخدمه والمقربين إليه.

على أن المعرفة لم تقتصر على البستاني وإنما تجاوزته إلى الخادم؛ فقد كان هذا المهندس لا يستطيع أن يكتفي ببستانيه، وإنما هو في حاجة إلى خادم تُصلح من أمره وتشرف له على نظام الدار، وقد علمت أن أختي لم تكد تفارقه حتى تعجَّل البحث عمن يخلفها، واهتدى بعد قليل من الوقت إلى هذه الفتاة الجميلة الوادعة ذات الوجه المشرق والجسم البضِّ والعقل الضيق القصير. اهتدى إلى «سكينة» هذه التي أقامت عنده خليفة لأختي، والتي كنت أتحدث إليها فلا أرى عندها غناء، ولا أجد في الاستماع إلى أحاديثها